حوارات في تدبير المبتدئين

(٣)

محبة يسوع – ١

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

إذا كانت المحبة هي أساس كل شيء في حياتنا، فكيف استُعلِنت محبة يسوع لنا، وكيف تعمل فينا؟

سؤال: كيف استعلنت محبة يسوع؟

الجواب: لقد أعلن محبته لنا عندما أخذ ذات اللحم والدم، أي ذات طبعنا الإنساني (عب ٢: ١٤)، قَبلَ أن يعبر الهوة الفاصلة بين الخالق والمخلوق، وأن يوحِّد الخالق بالمخلوق، أي اللاهوت بالناسوت. أنا أعرف كيف انحرف البعض نحو النسطورية، وأحياناً نحو الأوطاخية، ولكنني لا أريد أن أصرف ولو حتى دقيقة في مناقشة هذا الإنحراف الخطير، لكن: ماذا أسس تجسد الابن الوحيد الله الكلمة؟ ليس فقط عبور الهوة بين ما خُلق مِن العدم ومَن هو "كائن" أو "واجب الوجود"، بل الاتحاد الإلهي بالطبع الإنساني. لقد أصبح في جوهر اللاهوت، أي جوهر حياة الثالوث، إنسانٌ هو يسوع، وهو الوسيط والرأس والراعي والبكر والنور وخبز الحياة والقيامة ورئيس الكهنة، وغيرها من ألقابٍ صارت تعبِّر عن حقيقة الاتحاد. فهو الوسيط بين الله والناس، وهو رأس الجسد، وهو الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف، وهو البكر بين إخوة كثيرين، وهو النور الإلهي، وهو خبز الحياة الذي يُعطى خبزاً من عند الآب. ألا ترى أن كل هذه الألقاب ليست مجرد أسماء، بل هي استعلانات عمل المتجسد، وهي كلها استعلانات محبة يسوع. هو الوسيط، وهو فعل

ذلك من أجل أن يجيء بنا، ليس بشكل عقلي، بل بالشركة الحقيقية. وهو رأس الجسد الكنيسة الذي منه تولد كل الأعضاء. وهو الراعي الذي يدافع ويحمي الخراف بحياته. وهو البِكر الذي أنقذ الإنسانية من الفساد والموت والدينونة، وجعل لنا ذات الميراث. وهو النور الذي يقودنا بمعرفة خاصة إلى الآب. ثم هو يعطي ذاته في السر المجيد؛ لأنه خبز الحياة. هذه كلها أفعال، وليست أقوالاً تعبِّر عنها الكلمات، هي أفعال، هي حقائق، وهي دعامات أو أساسات شركتنا في يسوع المسيح.

لقد جاء دوري أنا لكي أسألك: هل انتبهت إلى أن الألقاب التي ذكرتها كلها، هي استعلانات عن عمل وشخص وعطاء الرب يسوع؟

قلت: لا. هذا كلام جديد لم أسمعه من قبل.

قال: هذا مخيف. هل نحو نتلو أسماء الرب أو ألقابه بدون وعي؟ هل ترى كيف أن اسم "الوسيط" هو أساس إضافة عبارة "بالمسيح يسوع ربنا" في الصلاة الربانية، وكنيستنا هي الكنيسة الوحيدة بين كل الكنائس الأرثوذكسية التي وضعت هذه الإضافة؛ لأن كل ما يُقال في الصلاة الربانية ليس له قوة ولا فاعلية ولا وجود بدون يسوع المسيح. ولست أريد أن أشرح ألقاب الرب يسوع، ولكن يكفي هنا أن هذه الألقاب هي خاصة بالتجسد وبتدبير الخلاص، وهي استعلانات محبة البشر، فليس عبثاً أن الكنيسة الأرثوذكسية كلها، نحن والأرمن والسريان واليونانيين نقول دائماً في صلواتنا تعبير "محب البشر"؛ لأن هذا هو الاستعلان العظيم الذي جاء به المخلص.

سؤال: هذا معزِّي ومفرح جداً لقلبي. هل يوجد في هذه الألقاب سمات خاصة للمحبة؟

جواب: نعم بكل تأكيد. لازم نفكر كيف صار الكلمة الخالق وسيطاً بين الخليقة والله الآب. هو تطوُّعٌ حُرٌّ، وهو قبولُ ما ليس من طبعه، أي الناسوت، وهو ليس قبولاً مؤقتاً، بل اتحاداً أبدياً. عندما يقول الرسول إنه سوف يُسلِّم الملك لله الآب

في نهاية الأزمنة "ومتى أُخضع له الابن الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أُخضع له الكل (الآب)"، سوف يعلِّمنا الابن في الدهر الآتي أسرار حياة الملكوت الأبدي، وكيف نحيا الحياة الجديدة، وسيكون مثالاً للخضوع، ولكن هذا الخضوع هو خضوع المحبة، وليس خضوع الأقل للأعظم. المحبةُ تُخضِع، وهو قد خضع وقَبِلَ الأقل، أي عندما أخذ شكل العبد (فيلبي ٢: ٦)، ولذلك رفَّعه الآب وأعطاه اسم يهوه، الاسم الذي فوق كل اسم؛ لأنه أعلن المحبة الإلهية الخادمة والباذلة والواهبة. هذه هي سمات من "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد"، ولذلك السبب يقول القديس بولس إن الرب يسوع في الكنيسة يسبِّح معنا؛ لأنه الوسيط، وهو لا يستحي أن يدعونا اخوته لأنه أخذ طبعنا (عب ٢: ١١)، بل يقول للآب: "ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الآب" (راجع عب ٢: ١٣). لقد قرأت شرحاً لمزمور ٢١، وهو مزمور ٢٢ للقديس أوغسطينوس يقول فيه إن الرب يسوع يعترف لله الآب بكل ما نعترف به؛ لأنه رأس الجسد، وكل ما لدينا يقدِّمه الابن للآب. هو يعترف حتى بخطايانا[1]. لقد قرأت كلمات أوغسطينوس على شرح مزمور ١٤٠ وتوقفت طويلاً عن كل كلمة؛ لأن ما ذكره أوغسطينوس هو ضد تيارات سائدة في التقوى القبطية عن شفاعة المسيح

---

(١) "لماذا يارب تطلب غفران خطاياي؟ ولماذا تصلي هذه الصلاة؟ ما هي الخطايا التي تغفرها؟ والرب يجيب "في كل مرة يصلي عضو من أعضائي، فأنا الذي أصلي، ألم يقل هو: "كل ما فعلتموه بأيٍّ من هؤلاء الأصاغر فيَّ قد فعلتم (متى ٢٥: ٤٠)" (عظة على مزمور ١٤٠ الآباء اللاتين مجلد ٣٧: ١٨١٩). ولماذا يقول المزمور "كلمات خطاياي (مزمور ٢١: ٢ الفولجاتا)، فهو لا يصلي فقط من أجل خطايانا، بل لأنه جعل خطايانا خطاياه هو لكي يكون بره هو برنا" (مزمور ٢١: ٢ الآباء اللاتين ٣٦: ١٧٢) وأيضاً "لا يجب أن نفصل أنفسنا عن الرأس لكي يبقى هو المخلص الواحد والوحيد لجسده ربنا يسوع المسيح ابن الله الذي يصلي لأجلنا ويصلي أيضاً فينا وهو ذاته الذي نصلي له .. هو يصلي فينا لأنه رأسنا ونحن نصلي له لأنه إلهنا". نحن نصلي له لأنه الإله وهو يصلي فينا لأنه في صورة العبد. هو الخالق ولكنه صار كمخلوق. هو لم يتغير ولكنه أخذ المخلوق لكي يجدده في ذاته جاعلاً إيانا كإنسان واحد رأس جسده. نحن نصلي له وبواسطته وفيه. نحن نصلي معه وهو يصلي معنا ونتلو كلمات هذا المزمور فيه وهو يتلوها فينا (مزمور ٢١: ٢ مجلد ٣٦: ١٧٢).

رجاء مراجعة Emile Mersch, The Whole Christ وقد نُشرت عظات القديس أوغسطينوس على سفر المزامير في ٥ مجلدات باللغة الإنجليزية، وهي متوافرة على Amazon كما نُشرت العظات الأخرى في عشر مجلدات.

الكفارية، وهي فكرة تهدف إلى فصل الرأس عن الأعضاء. نحن نعاني من هذا الفصل، ليس في هذا العصر، بل هي معاناة وُلدت في العصر الوسيط ولا تزال معنا: المسيح في السماء ونحن على الأرض، وقد غاب التعليم عن الجسد الواحد، والرأس الواحد، وشركة الجسد لحياة الرأس، وشركة الرأس الذي منه كل الأعضاء، لحياة ومجد وقوة الرأس.

ليست في شفاعة المسيح رأس الجسد كما ذكر أوغسطينوس أي مشكلة لمن يؤمن فعلاً بأن الكنيسة هي جسد المسيح. لقد حاول بعض الغربيين الالتفاف حول "جسد المسيح الكنيسة"، وخلقوا تعبيراً هو "جسد المسيح السري"، ولكن هذا التعبير يهدف إلى اعتبار أن جسد المسيح هو سري، أي غير منظور، بينما الرب يسوع لم يقل إنه غير منظور، بل هو المريض والمسجون والعريان والجائع، وإننا "أعضاء جسد المسيح"، إذ لم يذكر العهد الجديد برمته أن الكنيسة هي الجسد السري، بل "جسد المسيح".

+ + +